السياسة الإعلامية والنقد الموسيقي في فترة الاستقلال في تونس

جريدة "العمل" نموذجا

عائشة القلالي[1] (تونس)

يُعتبَر الإعلام عنصرا محوريّا في مجال الصناعة الموسيقية، فهو يُمَثّل أحد أدوات الوساطة بين المنتج الموسيقي والمستهلك، حيث تُساعد مختلف وسائله التقليدية والحديثة على إيصال المادة الموسيقية إلى المُتلقّي بطرق مختلفة، إما عن طريق إذاعتها وبثّها مباشرة، أو عن طريق الدعاية والإشهار، أو كذلك عن طريق الحديث عنها في البرامج الإذاعية والتلفزية، أو نقدها في الصحف المكتوبة التي تُمثّل واحدة من أهمّ وسائل الإعلام التي كانت ولازالت تُؤَثّر في الرأي العام والتوجّهات الفكرية، حيث تحتلّ الصحافة المكتوبة مكانة بارزة في المجال الفكري والثقافي بصفة عامة وكشاهد على الحياة الفنية والثقافية وكمرآةٍ تَعكِسُ مختلف الأحداث الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تعيشها البلاد في فترة زمنية ما بما تَتَضَمّنه من أخبار وتقارير حول المناسبات والأحداث والمستجدّات اليومية.

ونظرا لأهمية دور الإعلام في المجتمع ولقدرته على التأثير فيه بمختلف وسائله تسعى السّلطات السياسية، خاصة في المجتمعات ذات النظام الشمولي، إلى السيطرة عليه وتوظيفه لخدمة مصالحها الخاصة وللترويج لمشاريعها الثقافية والاجتماعية والسياسية. وكلما تطوّرت وسائل الإعلام والتواصل المعلوماتي، كلّما كان سعي السلطة السياسية أكبر إلى احتوائها وفرض الرقابة عليها، وذلك إن دلّ على شيء، فعلى قدرة الإعلام الهائلة على توجيه الرأي العام في مختلف مجالات الحياة خاصة الثقافية والسياسية منها.

وقد نَجَحت السلطة السياسية في تونس منذ الاستقلال وعلى امتداد سنوات عديدة، في جعل الإعلام خادما لمشروعها ومساندا لإيديولوجيّاتها، منطلقة في ذلك من اعتبارها أن الوظيفة الرئيسية لوسائل الإعلام هي خدمة مصالح السلطة السياسية وتمرير الثقافة الرسمية التي تُصوّرها هذه السلطة إلى الشعب. وبما أن تصوّر السلطة السياسية لوظيفة الإعلام يتعارض مع التصوّر النظري لهذه الأخيرة الذي تتضمّنه أدبيات الصحافة والإعلام التي تحدّد وظائف الصحافة في المجتمع بما هي: نشر الأخبار والتوعية والتثقيف والإعلان والتسلية (أبو زيد، ١٩٨٦، ص. ٥٨-٦٢)، ويتعارض أيضا مع وظائف النقد الصحفي كمجال إعلامي، وهي التثقيف والتوعية والتأثير في الرأي العام، اخترنا أن نبحث في تأثير التصوّر الرسمي لوظيفة الإعلام على خطاب الصحافة الحزبية الرسمية في المجال الموسيقي، من خلال استخراج محاور صحيفة العمل في مجال الموسيقى وبيان ملامح خطابها الصحفي، وقد وقع اختيارنا على جريدة العمل نظرا لأنها كانت لسان حال الحزب الدستوري الذي حكم تونس منذ الاستقلال إلى ١٩٨٧، وقد كانت تحظى بنسبة مقروئية هامة خلال سنوات الاستقلال الأولى نظرا لقلّة عدد الصحف بعد أن تعطّل عدد كبير منها إما بسبب الانسحاب أو بسبب المنع، كما أنها كانت تمثّل المصدر الرئيسي لأخبار الحياة السياسية والاجتماعية لتلك الفترة.

[1] باحثة في العلوم الموسيقية، طالبة دكتوراه، أستاذة متعاقدة، المعهد العالي للموسيقى بتونس.

فما هي أهم ملامح السياسة الإعلامية في تونس في فترة الاستقلال ؟ وكيف انعكست هذه الملامح على الخطاب الصحفي حول الموسيقى ؟

١. ملامح السياسة الإعلامية في تونس

شرعت الدولة الوطنية التونسية بعد تحقيق الاستقلال في منتصف خمسينيات القرن العشرين في رسم سياساتها وهيكلة أجهزة ومؤسسات الدولة وذلك بعد تأسيس الجمهورية في ٢٥ جويلية ١٩٥٦، وتنصيب الحبيب بورقيبة رئيسا لها، وكان هذا الأخير قد اكتسب، في المخيال الشعبي التونسي، شرعية تاريخية بالنظر إلى مساهمته في تحقيق الاستقلال، وبالتالي وجدت السلطة السياسية آنذاك دعما شعبيا كبيرا ساعدها على تنفيذ مشروعها السياسي التحديثي في جميع المجالات. وقد شهدت الصحافة في هذه الفترة تحولات هامة تتمثّل بالأساس في شروع الدولة في هيكلة وتقنين القطاع الصحفي وفي اختفاء الصحف الاستعمارية والحزبية الفرنسية وظهور صحف تونسية جديدة.

وبما أن السلطة السياسية في فترة الاستقلال اتّبعت نظاما شموليا قائما بالأساس على الأحادية الحزبية، سعت هذه الأخيرة إلى فرض سلطتها على جميع مجالات الثقافة والفكر والتعبير وأهمّها الصحافة المكتوبة. ورغم ما عرفته الصحافة التونسية من انتعاش في سنوات الاستقلال الأولى، التي ظهرت فيها الأحزاب المعارضة لبورقيبة والتي وجدت حيزا من الحرية لإصدار صحفها، إلا أن السلطة السياسية تراجعت بداية من الستينات عن مبدأ التعددية الحزبية والتفتح السياسي واختارت السير في نهج اشتراكي قائم على علوية الدولة واستفرادها بتسيير المجتمع في جميع المجالات، وبالتالي فرضت على جميع الصحف الانخراط في توجهها الإيديولوجي والالتزام بإملاءاتها والمساهمة في تكريس مشروعها التحديثي، مما أدى إلى تنميط الخطاب الصحفي وتوحيده "وإلى ركود الحياة السياسية وإلى فقر في المادة الإعلامية وإلى خمول في المبادرات الصحفية وإلى انهيار تدريجي لمصداقية الصحافة الوطنية" (حمدان، ١٩٩٥، ص. ٢٦).

وقد تميزت الصحافة المكتوبة في فترة الاستقلال بعدد من الخصائص، أهمّها الخضوع الكلي للدولة بعد إلحاق الصحف بالهياكل الرسمية وجعلها تابعة لها هيكليا وماليا، وإصدار قانون الصحافة في ٩ فيفري ١٩٥٦ وتوحيد مصدر المعلومات وإجبار جميع الصحف على استقاء المعلومات من مصدر واحد تابع للدولة وهو وكالة تونس إفريقيا للأنباء. كما تميّزت الصحافة المكتوبة أيضا بأحادية الخطاب، حيث انخرطت جميع الصحف في الدعاية الحزبية ومثّلت دعامة أساسية لسياسة الدولة من خلال الخطاب التمجيدي الموالي للسلطة القائم على المبالغة والغِلاء والتضخيم بالإضافة إلى حصر مهامّ الصحافة المكتوبة في التعبئة السياسية ونشر الثقافة الرسمية التي تسطّرها السلطة.

أدّى إتّباع سياسة إعلامية قائمة على تجنيد جميع الصحف لخدمة المشروع السياسي وتمجيد الرئيس، رمز السلطة السياسية، إلى حَيَدان الصحافة عن خط سيرها الطبيعي وضعف أدائها لوظائفها الثقافية والاجتماعية، المتمثّلة في الإعلام بكل ما يخص الرأي العام من أخبار وأحداث إضافة إلى التثقيف والترفيه والتربية، وتنامي وظيفتها الدعائية والتمجيدية والسياسية الصرفة، وهي وظيفة قامت على انتقاء الأخبار والمبالغة في المدح والثناء على السلطة السياسية، وقد كانت لهذه الوضعية انعكاساتها على مختلف تفرّعات الخطاب الصحفي، وأهمها الخطاب الصحفي حول الموسيقى،

الذي كان يفتقد إلى الاستقلاليّة والحياديّة نتيجة ما فرضته الدولة من رقابة وتوجيه صارمين على الصحافة المكتوبة.

٢. الخطاب الصحفي حول الموسيقى

النقد الموسيقي هو عمل تثقيفي وفكري يقوم على التحليل والتفسير والمنهج، ويتطلّب معرفة واسعة بخاصيات المادة الفنية وقدرة على قراءتها وتحليلها والحكم عليها ووضعها في إطارها العام، كما يتطلّب أيضا القدرة على بناء الخطاب وتوجيهه بطريقة موضوعية تضمن بلوغ المقاصد والمفاهيم النقدية إلى القارئ. ونميّز هنا بين النقد الموسيقي المختصّ والنقد الموسيقي الصحفي، فالنقد المختص هو "مهنة الكتابة حول جماليات وتاريخ وتطوّر الموسيقى ونقد المؤلّفات الموسيقية وأدائها في الصحف والدوريات والكتب والراديو والتلفزة" (*KENNEDY*, 2007, p.176). أما النقد الصحفي فيمكن تعريفه بما هو التعليق على الأعمال والأحداث الموسيقية بتحديد إطارها العام وبيان سلبياتها وإيجابياتها أو نقاط القوة ونقاط الضعف فيها وقراءة الأعمال الفنية وتفسيرها، وهو ما لا يمكن أن يتمّ دون معرفة موسيقية دُنيا، تُمكّن من إطلاق حكم جمالي منطقي ومُعلَّل، وبالتالي على الخطاب النقدي أن يكون مُعلّلا وعلى الناقد أن يستند في قراءته إلى مرجعية جمالية تبرهن حُكمه الذوقي وتفسيره للعمل الموسيقي حتى إذا كان خطابه موَجّها إلى القارئ العادي، فالخطاب النقدي، وخاصة الصحفي له تأثير كبير على العمل الفني من ناحية وعلى المتلقي من ناحية أخرى.

ويلعب الخطاب الصحفي حول الموسيقى، سواء كان نقدا أو إخبارا، دورا هاما في تثقيف المجتمع وتوجيه الذوق العام، سلبا أو إيجابا. وتتطلّب الوظيفة التثقيفية قدرا من الموضوعية في صياغة الخطاب والاستقلالية في طرح القضايا الموسيقية، أي أن لا يُبنى الخطاب على الطرح الذاتي والانطباعي وبالأسلوب الوجداني التعبيري، وأن لا يكون مدفوعا بالولاء للإيديولوجيات السياسية أو غيرها وأن يتّسم بقدر من الجدية والمصداقية حتى يضمن بلوغ وظيفته التثقيفية تجاه القارئ.

وبما أن العمل الإبداعي والنقدي على حد السواء لا يكونان ذوَيْ مصداقية إلا إذا ما توفّرت لديهما حرية التفكير والتبليغ، فإنّ هذا ما افتقداه بنسب متفاوتة منذ الاستقلال، فقد عملت السلطة في هذه الفترة على توجيه الإعلام والسيطرة عليه وحتى قَمْعِه حين تقتضي الحال، مما أدى إلى تقيّد الخطاب النقدي بالحدود التي يسطّرها النظام السياسي، فَحَالَ دون قيامه بدوره في حركة الإبداع الموسيقي، رغم ما عرفه المشهدان الإعلامي والموسيقي من تحوّلات متواترة ومتعاقبة جرّاء الانتقال من الوضع الاستعماري إلى مرحلة بناء دولة مستقلّة وإعادة تشكيل هوية وثقافة وشخصية الإنسان التونسي. فمن ناحية أولى عاش المشهد الإعلامي انفتاحا جزئيا خلال سنوات الاستقلال الأولى، بعد أن تأسّست العديد من الصحف الحكومية والشعبية والمجلات والدوريات ذات التوجّهات الفكرية والسياسية المختلفة، بل المتعارضة، ومن ناحية ثانية، عرفت الممارسات الموسيقية العديد من التحوّلات سواء على مستوى المضامين الغنائية أو الأشكال الموسيقية أو الإطار العام للممارسة الموسيقية أو تركيبة الفرق وتنظيمها. وتغيّرت مجالات الممارسة

الموسيقية نتيجة للأحداث والتوجّهات السياسيّة التي أثّرت، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على الحياة الموسيقية بصفة عامة، وعلى عمليّتَيْ إنتاج واستهلاك المادة الموسيقية بصفة خاصة.

١.٢ محاور النقد الموسيقي في جريدة "العمل"

اتجهت دولة الاستقلال في تونس إلى جعل الإعلام جهازا إيديولوجيا سلطويا، وقد استغلّت وسائلها الإعلامية في نشر توجيهاتها في جميع المجالات؛ الاجتماعية والثقافية والتعليمية والسياسية وعَمِلت من خلال صحيفتها الرسمية على إعادة تشكيل الوعي الجماعي وتوجيه الذوق الفني العام وِجهَة تتماشى مع تصوّرها للمجتمع وللأفراد وللثقافة، حيث قامت جريدة العمل بالترويج لإيديولوجيا الحزب ونشر الثقافة الرسمية وتبنّي بعض الأنماط الموسيقية مقابل تجاهل أنماط أخرى لم تحظ برضا السلطة السياسية ولم تكن ضمن عناصر الثقافة الرسمية وهو ما سنحاول تبيّنه في التالي من خلال استخراج بعض المحاور التي تضمنتها الصفحة الثقافية لجريدة العمل.

بعد اطّلاعنا على عدد هام من مقالات جريدة العمل وتحليلها تبيّن لنا أنها ركّزت على ٣ محاور رئيسية وهي:

أ. حث الموسيقيين على الاهتمام بالحضور الركحي وتحسين الهندام: مثّل تحسين الهندام أحد أهم الأهداف التي عملت السلطة السياسية على تحقيقها في المجال الاجتماعي، وقد قامت في سبيل ذلك بإنتاج الأغاني والفقرات الإعلانية وبثّها في الإذاعة لحثّ التونسيّين على تطوير هندامهم ومظهرهم الخارجي والتخلي عن اللباس التقليدي وتعويضه باللباس الإفرنجي في إطار تبني السلطة السياسية لجميع أنماط ومظاهر الثقافة الغربية وسعيها إلى تكريسها في جميع المجالات. وقد دعت بعض مقالات جريدة العمل الموسيقيين إلى توحيد لباسهم خلال العروض وتطوير حضورهم الركحي بتقليد رواد الموسيقى الغربية وترك الجمود واتباع طريقة جديدة للتعبير الركحي أثناء الأداء لتفادي ملل الجمهور المتابع لهم وللظهور في صورة عصرية تتماشى مع تصوّر السلطة للإنسان التونسي، ونذكر في هذا الصدد المقالات التالية:

- "فرقتنا القومية لا تعتني بالهندام على الدوام"، العمل، ١٩٥٩/٠٧/٠٣.
- "الجمود عدو الفنان رقم ١"، العمل، ١٩٥٩/٠١/٣١.

ب. حث الموسيقيين على ترك الأغاني العاطفية: عرفت الأغاني العاطفية والتجارية رواجا كبيرا في فترة الاستقلال، وقد دار آنذاك جدل كبير حول وضعية الأغنية التونسية سواء في الصحافة المكتوبة أو خلال الندوات الثقافية، وكان هنالك إجماع مطلق تقريبا حول تدني مستوى الأغنية شكلا ومضمونا، خاصة مع رواج الأغاني ذات الصيغ الغريزية والتجارية، وغياب الأغاني ذات المضامين الاجتماعية الهادفة. ونظرا للوضعية الأمنية غير المستقرة التي مرت بها تونس في سنوات الاستقلال الأولى، جرّاء الاعتداءات العسكرية الفرنسية المتكررة على الأرض التونسية، تعالت الأصوات في جريدة العمل للمناداة بضرورة التفاف الموسيقيين والمؤلفين الغنائيين حول السلطة السياسية، وتبني القضايا الوطنية في أعمالهم الغنائية، لما لهم من دور في رفع معنويات المناضلين والقوى العسكرية الوطنية ضد الاعتداءات الفرنسية وحث الشعب على المشاركة في النضال وبالإضافة إلى دورهم في تخليد الأحداث التاريخية التي يعيشها الوطن، ونذكر هنا المقالات التالية:

- "الأغنية التونسية"، العمل، ١٩٥٧/١١/١٠.

- "هل الأغنية الشعبية أغنية شعبية حقيقية"، العمل، ١٩٥٧/١٢/١٣.

- "حاجتنا إلى الأغاني الوطنية التي تلهب الشعور وتذكي الحماس"، العمل، ١٩٥٨/٠٥/٢٨.

ج. الترويج للاحتفالات والتظاهرات الموسيقية الرسمية: نظرا لطبيعتها الحزبية، ساهمت جريدة العمل في الترويج للتظاهرات الموسيقية التي كانت تشرف عليها المؤسسات الحكومية أو التي كان يقيمها الحزب الدستوري. وكانت الصحيفة تثني في كل مرة على دور الرئيس بورقيبة في إنجاز هذه التظاهرات بشيء من التضخيم والغلوّ. وهو ما ساهم في تضخيم صورة بورقيبة لدى القارئ وفي الوعي الجماعي عموما، ومن بين المقالات الواردة في هذا المحور نذكر:

- "المنستير تستعدّ للاحتفال بعيد ميلاد فخامة الرئيس"، العمل، ١٩٥٨/٠٧/١٦.

- "حفلات عيد الجمهورية والألوان الشعبية التونسية"، العمل، ١٩٥٨/٠٧/٢٧.

- "في افتتاح مهرجان علي الرياحي"، العمل، ١٩٧٥/٠٣/٢٥.

خاتمة

نلاحظ إذا أن مقالات جريدة العمل دارت كلّها حول المحاور التي مثّلت في سنوات الاستقلال الأولى النقاط القاعدية التي تأسّست عليها السياسة الاجتماعية للبورقيبية، على غرار تحسين الهندام والالتفاف حول الوطن وتكريس مفهوم التونسة وغيرها. كما نلاحظ أيضا أن جريدة العمل كانت إحدى أهم الأدوات الدعائية التي اعتمدها الحزب الحاكم للترويج للأنماط الثقافية والفنية التي ترجمت التصوّر البورقيبي للثقافة التونسية، وبالتالي يمكن حصر ملامح الخطاب الصحفي حول الموسيقى في جريدة العمل في ثلاث نقاط رئيسية وهي:

- **الالتزام بالإيديولوجيا السياسية:** ونتبيّنه من خلال تبنّي الصحيفة للمشروع التحديثي لدولة الاستقلال والذي قام على عدد من الأسس في المجالين الاجتماعي والثقافي، أهمها تحسين الهندام وتكريس مفهوم الأمة التونسية والدعوة إلى ضرورة إعلاء وتبجيل القضايا الوطنية، ومن الطبيعي أن تلتزم الصحيفة الحزبية بإيديولوجيا الحزب الناطقة بلسان حاله.

- **الانخراط في الدعاية الحزبية:** وذلك من خلال نشر الأخبار والمقالات حول التظاهرات والأحداث الموسيقية الرسمية أي التي تتبنّاها وتشرف عليها السلطة السياسية، وإن كانت "العمل" تعمد دائما إلى إظهار هذه الأحداث في صورة الأعراس الثقافية الكبرى والإنجازات الرائدة، لكن ذلك يندرج ضمن سياستها التحريرية بما هي صحيفة حزبية تمثّل الدعاية السياسية وظيفتها الرئيسية.

- **المساهمة في تأسيس الإطار القانوني للممارسة الموسيقية:** مثّل تقنين الممارسة الموسيقية أحد أهم المطالب التي تبنّتها صحيفة العمل في مقالاتها وتقاريرها التي بيّنت فيها أهمية التأطير القانوني للمهن الموسيقية وحماية حقوق المؤلّفين

ونادت بوضع قوانين الاحتراف وتركيز الرقابة على مديري الفرق الموسيقية لضمان حقوق العازفين وأعضاء الفرق الموسيقية.

الهوامش

(١) أبو زيد، فاروق، ١٩٨٦، مدخل إلى علم الصحافة، القاهرة، عالم الكتب.

(٢) حمدان، محمد وآخرون، ١٩٩٥، الموسوعة الصحفية العربية، ج.4، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٣) تأسست وكالة تونس إفريقيا للأنباء (وات) في ١ جانفي ١٩٦١ وهي أوّل وكالة أخبار في إفريقيا والعالم العربي. اُنظر الموقع الرسمي للوكالة:

http://www.tap.info.tn/ar/index.php/tap_info (consulté le 29/01/2015).□

(٤) KENNEDY, Joyce and Michael, 2007, *Concise dictionary of music*, 5th ed., New York, Oxford university press.□

□(٥) قصف مدينة سوق الاربعاء، حادثة قابس، قصف مدينة قفصة.

المقالات الصحفية المذكورة

- "المنستير تستعدّ للاحتفال بعيد ميلاد فخامة الرئيس"، ١٩٥٨/٠٧/١٦، العمل.
- "حفلات عيد الجمهورية والألوان الشعبية التونسية"، ١٩٥٨/٠٧/٢٧، العمل.
- "في افتتاح مهرجان علي الرياحي"، ١٩٧٥/٠٣/٢٥، العمل.
- "فرقتنا القومية لا تعتني بالهندام على الدوام"، ١٩٥٩/٠٧/٠٣، العمل.
- "الجمود عدو الفنان رقم ١"، ١٩٥٩/٠١/٣١، العمل.
- "الأغنية التونسية"، ١٩٥٧/١١/١٠، العمل.
- "هل الأغنية الشعبية أغنية شعبية حقيقية"، ١٩٥٧/١٢/١٣، العمل.
- "حاجتنا إلى الأغاني الوطنية التي تلهب الشعور وتذكي الحماس"، ١٩٥٨/٠٥/٢٨، العمل.

الملخص

السياسة الإعلامية والنقد الموسيقي في فترة الاستقلال في تونس

جريدة "العمل" نموذجا

عائشة القلالي[٢] (تونس)

عاشت تونس في فترة الاستقلال مرحلة بناء الدولة الوطنية وتكريس سياستها ومؤسساتها حسب النموذج البورقيبي، وقد حظي قطاع الإعلام باهتمام واضح من طرف السلطة آنذاك إيمانا منها بقوة تأثيره على الرأي العام فسعت إلى توجيه وسائل الإعلام وتكريس كل القطاع الإعلامي لخدمة الاتجاه السياسي العام للبلاد ونجحت في جعله خادما للمشروع البورقيبي. ودون أن نخوض في جدال حول مشروعية هذا التكريس أو تقييم نتائجه نقرّ بأن مجال النقد الموسيقي كان أحد المجالات الإعلامية التي خدمت المشروع السياسي ويبيّن بحثنا كيف ساهم النقد الموسيقي في خدمة المشروع الثقافي للدولة الوطنية من خلال التركيز على بعض المحاور دون غيرها ومن خلال المساهمة أيضا في تسليط الضوء على أهمّ نقائص المجال الموسيقي في سنوات الاستقلال الأولى ودعوة الدولة إلى إصلاح المجال والاهتمام به على غرار المجالات الأخرى. لذلك يمكن القول أن النقد الموسيقي في تونس في بداية الاستقلال لم يكن بمنأى عن سياسة بناء الدولة بل كان شريكا في ذلك، ولكنه أيضا من ناحية أخرى كان خادما للسلطة وللمشروع البورقيبي بالأساس وقد أثّر ذلك على المجال الموسيقي والتذوّق الفني بصفة عامة.

[٢] باحثة في العلوم الموسيقية، طالبة دكتوراه، أستاذة متعاقدة، المعهد العالي للموسيقى بتونس.